

مولانا شبلي النعماني ومنهجه

في "سيرة النبي ﷺ" (١)

بقلم الدكتور محمد علي غوري*

من هو شبلي النعماني؟

كان شبلي النعماني مفكراً إسلامياً وشاعراً نظم الشعر بالفارسية والأردية، وسياسياً محنكاً كان له دور ملموس في مجريات الأحداث في تلك الحقبة الحرجة من تاريخ شبه القارة الهندية، وكان خبيراً تعليمياً له آراء قيمة في هذا المجال، كما كان صحفياً تميزت مقالاته بالجدية والعمق، وكاتباً كبيراً ومؤرخاً فريداً من نوعه. (٢)

١ - ألقى هذا المقال في الندوة التي أقيمت في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد بمناسبة انتهاء كاتب المقال من ترجمة الجزء الأول من كتاب "سيرة النبي ﷺ" لمولانا شبلي النعماني (حوالي ٦٠٠ صفحة من الحجم المتوسط) إلى اللغة العربية، وترجمة الكتاب - وهو من سبعة أجزاء - مشروع مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة.

(*) أستاذ مشارك في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد.

٢ - عدد الدكتور آفتاب أحمد صديقي مزايا شبلي في كتابه "شبلي ايك دبستان از داكتر آفتاب أحمد صديقي مكتبة عارفين - كراتشي. وقد أفرد صفحات كثيرة لكل ميزة وصفة من صفاته".

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

يقول عنه العلامة إقبال : إن شبلي من الشخصيات النادرة التي
قلما تحظى بها لغة من اللغات^(١).

اسمه:

محمد شبلي بن حبيب الله الملقب بشمس العلماء.^(٢) ينتمي إلى
قبيلة راجبوت. كان أبوه تاجرا ومحاميا ومن أصحاب الأفيان. ولد عام
١٩٥٧م في "أعظم كره" وتسمى بالنعماني لولعه الشديد بالإمام الأعظم
أبي حنيفة النعمان، ولا أدل على ذلك من قيامه بتأليف كتاب خاص عن
هذا الإمام بعنوان "النعمان".

في بداية حياته العملية عين أستاذا مساعدا في كلية "علي
كره" وذلك في عام ١٨٨٣م وهناك اتصل بالأستاذ سيد أحمد خان
مؤسس الكلية. تولى مناصب علمية عديدة في هيئات مختلفة منها دار
العلوم (الندوة) حيث شغل فيها منصب "المعتمد"، وأنشأ دار المصنفين
وترأسها كما أصدر عدة مجلات علمية وأدبية.

تدور كتاباته حول علم الكلام والتاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب.

وفي عام ١٨٩٢م زار الشام ومصر وتركيا وكتب عن رحلاته
هذه، وفي عام ١٨٩٣م كتب "سيرة النعمان"، وفي عام ١٨٩٩م كتب
"سيرة الفاروق" ويعد هذا الكتاب من أهم أعماله.

^١ - "شبلي كا مرتبة اردو أدب مين" از عبد اللطيف أعظمي، صفيه اكيدي،
كراتشي، بار دوم ١٩٦٧ ص ٤.

^٢ - "شبلي نعماني كى مقالات كا تنقيدي جائزة " از داكتر شيخ عبد الرحيم
أنصاري ناشر: خود مصنف بتنه، ١٩٩٠م ص ٩.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

ثم توالفت مؤلفاته "المأمون" و"الجزية" و"كتب خاتمة اسكندرية" ومنذ عام ١٩٠١م وحتى عام ١٩٠٥م اتجه شبلي النعماني إلى علم الكلام فقام بتأليف كتبه "الغزالي" و"علم الكلام" و"الكلام" و"سيرة مولانا روم" وهو جلال الدين الرومي. ومن كتبه الأدبية المشهورة "موازنة أنيس وديبير" قارن فيه بين شاعرين أحدهما مشهور وهو أنيس والآخر مغمور وهو ديبير. حمل شبلي في هذا الكتاب على الشاعر الأخير معيدا إلى أذهاننا ما فعله الآمدي في كتابه "الموازنة" الذي حابي فيه البحتري على حساب أبي تمام.

وفي عام ١٩٠٨م ألف مبسوطه "تاريخ شعر العجم" في خمسة مجلدات صدرت أربعة منها في حياته، وكان هذا الكتاب موضع جدل حاد بين الأدباء في تلك الآونة، فقد انتقده بعضهم نقدا لاذعا منهم المولوي عبد الحق سكرتير عام جمعية الارتقاء بالأردية في الهند^(١)، مع أنه كتاب فريد من نوعه ولا سيما في ذلك العصر، وقد ترجم إلى الفارسية فاعتبره الإيرانيون عملا أدبيا هاما.^(٢)

وفي عام ١٩١٣م ألف أهم كتبه على الإطلاق والذي نحن بصددته ألا وهو "سيرة النبي ﷺ".

١- "علامة شبلي نعماني معاندانه تنقيد كي روشني مين" از: سيد شهاب الدين دسنوي - مجلس نشریات اسلام كراتشي ١٩٨٩، ص ٨.

٢- نفس المرجع ص ٨

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

وله قصائد جميلة تدل على ذوقه الأدبي نظمها بالفارسية والأردية. وكتب شبلي مقالات عديدة في موضوعات متفرقة، كتب عن القرآن وعلم الكلام والتاريخ والفلسفة والنقد، وقد جمعت هذه المقالات في ثمانية مجلدات تحت عنوان "مقالات شبلي".

وأما تلميذه سليمان الندوي فقد كان له دور كبير في إخراج الكتاب موضوع البحث وهو سيرة النبي ﷺ إلى النور. ولد سليمان الندوي عام ١٨٨٤م والتحق بدار العلوم "الندوة" في عام ١٩٠١م وهناك التقى بأستاذه شبلي النعماني. ويعد سليمان الندوي من العلماء الأدباء الذين أجادو اللغة العربية وكان لهم فضل كبير في نشرها في شبه القارة.

أسلوبه ومنهجه في التأليف:

كان شبلي النعماني متأثراً بالأدب العربي ولاسيما العباسي، كما كان متأثراً بالأدب الفارسي، وحين التحق بكلية "علي كره" اتصل بالسيد أحمد خان - مؤسس الكلية التي أصبحت فيما بعد جامعة فاستفاد منه وإن كان قد اختلف معه في كثير من الأمور، فقد كان السيد أحمد خان يميل إلى مسaire الإنجليز، وكان يدعو المسلمين جميعاً إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى يواكبوا العصر ولا يتأخروا عن الركب. بالإضافة إلى إنكاره لبعض المعجزات، ومن ذلك قوله بأن رحلة الإسراء والمعراج كانت روحانية أي الروح فقط وليست بالجسد والروح.

أما شبلي النعماني فقد كان متأثراً باللغة العربية واللغة الفارسية وأدبهما وبأفكار جمال الدين الأفغاني الداعية إلى التخلص

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

من الاستعمار وآثاره، استفاد شبلي النعماني من الجو العلمي الذي كان يسود الكلية حيث اتصل بالمستشرق توماس آرنلد وكان أيضا أستاذا في هذه الكلية وتعلم منه اللغة الفرنسية وطرق البحث العلمي الحديثة التي يستخدمها الباحثون الغربيون^(١).

كان شبلي النعماني ينظر إلى التاريخ على أنه فلسفة اجتماعية متأثرا في ذلك بمؤسس علم الاجتماع ابن خلدون ، كما كان متأثرا بمنهج هيبوليت تين وهيجل، اعتمد شبلي على أصول الدراية والرواية وقواعد الجرح والتعديل في قراءته للتاريخ، نستطيع أن نقول إنه أحيا هذه الأصول والقواعد في كتبه التي ألفها. من جهة بين شبلي أخطاء بعض المؤرخين المسلمين في كتابتهم للتاريخ الإسلامي، ومن جهة أخرى بين أخطاء المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام وحاولوا تشويهه، وهو عندما يتحدث عن الشخصيات لا يقتصر عليها وإنما يتحدث أيضا عن العصور والأزمان التي عاشت فيها هذه الشخصيات فيحالها في ضوء ذلك كله^(٢).

^١ - ياد كار شبلي از داکتر شیخ محمد اکرام ادارة ثقافت اسلامیة- لاهور
طبع اول ۱۹۷۱، ص ۸۶.

^٢ - لذلك وصفه د. سيد عبد الله بأنه مؤرخ أكثر منه كاتب سير، رغم أنه كتب سير كثير من العظماء أمثال المأمون والفاروق والنعمان ورغم أنه لم يكتب تاريخ عصر من العصور، وذلك لأنه كان يلتزم أسلوب المؤرخين ويسلك مسلكهم، وأنه يقصد من التعرض للشخصيات العصور التي عاشت فيها والمراحل التاريخية التي مرت بها، ويقول عنه إنه تميز عن بقية المؤرخين في عرضه للتاريخ فقد وضع لدراسته للتاريخ أصولا وقواعد تختلف عن كثير من المؤرخين. أنظر" سر سيد أحمد خان اور ان کی نامور رفقا کی اردو نثر کا فنی اور فکری جائزہ" از داکتر سيد عبد الله مقتدره قومي زبان اسلام آباد ۱۹۸۶م ص ۱۶۱.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

اتهمه البعض بأنه دفاعي في أسلوبه حينما يتحدث عن الإسلام، وأنه لا يخاطب إلا الفئة المثقفة ثقافة حديثة. ربما كان ذلك صحيحاً فالمستشرقون كانوا يصلون ويجولون في العالم الإسلامي ويلقون بالتهم جزافاً متهمين الإسلام بشتى أنواع التهم مركزين الاهتمام على الشباب المثقف من المسلمين. فكان لا بد من أن ينهض شبلي وأمثاله لتوعية هذه الفئة المثقفة.

يتمادي شبلي أحياناً في شرح بعض التفاصيل حتى أنه ليبعد عن الموضوع الرئيسي محاولاً تبين وجهة نظره الشخصية والتي قد لاتهم القارئ كثيراً.

كما أنه في أحيان كثيرة وقبل الحديث عن الموضوع يمهد له بشرح واف يبين فيه كافة جوانبه المختلفة، وفي ذلك فوائد جمة.

يحتل شبلي مقاما مرموقا في الأدب الأردني ولا سيما النشر، حيث يعد من المساهمين في تطور اللغة الأردنية والأدب الأردني. كانت بداية اللغة الأردنية في القرن الثامن الميلادي، ومن المؤرخين من قال بأنها كانت قبل ذلك^(١). وكان للعلماء دور كبير في تطور هذه اللغة وأدائها منهم السيد أحمد خان وأبو الكلام آزاد ونذير أحمد وحالي ولكن دور شبلي كان أعظم^(٢).

ويتميز أسلوب شبلي النعماني بالبساطة وعدم التكلف والبداهة والاستدلال والمنطق والتأثر باللغة العربية والفارسية.

١ - شبلي كما مرتبه اردو أدب مين از عبد اللطيف أعظمي ، ص ٢٠.

٢ - نفس المرجع ص ٦٧.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

كما نلاحظ في أسلوبه الحماس والثقة اللامتناهية بالنفس، وفي بعض الأحيان الاستهزاء الهادئ.

العصر الذي ألف فيه كتاب "سيرة النبي ﷺ":

تميز العصر الذي عاش فيه شبلي النعماني والذي ألف فيه الكتاب موضوع المقال بأنه كان يموج بصولات وجولات المستشرقين، حيث كانوا يلقون بالشبهات حول الإسلام وحول الرسول ﷺ وأبرزهم مرجليوث وجولد زهير وبامر ودربير. ومما قالوا: إن النبي ﷺ إنما يعمل به بشر، وهي تهمة قديمة جديدة، "أتواصوا به بل هم قوم طاغون"؟! [الذاريات: ٥٣] يقول المستشرق دربير: إن النبي ﷺ تعلم أصول الدين الإسلامي من بحيرى ذلك الراهب الذي التقى به الرسول ﷺ وهو في الثانية عشرة من عمره في طريق رحلته مع عمه أبي طالب إلى الشام للتجارة. وقد رد عليه شبلي النعماني في كتابه "سيرة النبي ﷺ" ردا مفحما وبالأدلة الدامغة، وأثبت ضعف هذه الفرية وأمثالها، وتعجب كيف تصدر عن علماء وباحثين يدعون الحياد والموضوعية. (١)

ومن جهة أخرى كان الشيوخ يكفرون من يستخدم عقله في فهم الدين، وكذلك من يخضع الدين وقضاياها لطرق البحث العلمي الحديثة، ويرمونه بالإلحاد والزندقة. فكان الأمر يتطلب جرأة نادرة. لم يكن

١- "سيرة النبي ﷺ" علامة شبلي نعماني، جلد أول، نيشنل بك فاؤنديشن، لاهور طبع هفتم، ١٩٩٩م ص ١٧٠.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

سهلا في ذلك الوقت الرد على شبهات الغربيين بأساليبهم التي يعرفونها وباللغة التي يفهمونها، وهذا ما حاول فعله شبلي في شبه القارة ومحمد حسين هيكل في مصر وأمثالها في العالم الإسلامي.

لقي كتاب "سيرة النبي ﷺ" إقبالا كبيرا من الشباب المتعطش إلى من يرد على المستشرقين الذي كانوا يسرحون ويمرحون ويطعنون في الإسلام ورسوله ﷺ. فرح هؤلاء الشباب بهذا الكتاب أيما فرح حتى نفذت نسخ الكتاب بسرعة، فأعيد طبعه مرات ومرات^(١). لقد أعاد شبلي النعماني ثقة المسلمين بأنفسهم وثقة الشباب بدينه الذي كان قد بدأ يتأثر بهجمات المستشرقين. علم شبلي مسلمي الهند كيف يقدرون بضاعتهم^(٢).

من يقرأ هذا الكتاب يستطيع أن يتلمس أفكار ونظريات القرن التاسع عشر الذي ودعه المؤلف في حياته، ويعرف كيف كان الشباب المثقف يفكر لأن شبلي وضع ذلك نصب عينه حين ألف هذا الكتاب.

الظروف والملابسات التي أحاطت بتأليف كتاب "سيرة النبي ﷺ":

حين شرع شبلي النعماني في تأليف كتابه هذا أنشد قائلا:

^١ - وهذا ما حدث لكتاب " حياة محمد" للدكتور محمد حسين هيكل في مصر، فقد أعجب به الشباب المسلم، وانهال عليه حتى نفذت نسخته فأعيد طبعه عدة مرات. سنأتي على ذكر هذا الكتاب وصاحبه في نهاية هذا المقال عند المقارنة بين هذين العالمين الجليلين وكتابيهما في السيرة.

^٢ - "شبلي كما مرتبه اردو أدب مين" از عبد اللطيف أعظمي ، ص ٩ ، ١٠٠.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

عجم کی مدح کی عباسیوں کی داستان لکھی مجھے جنوری مہینہ آستان غیر ہونا تھا
مگر اب لکھ رہا ہوں سیرت پیغمبر خاتم خدا کا شکر ہے یوں خاتم الخیر ہونا تھا

(۱)

يقول: مدحت العجم وكتبت تاريخ العباسيين

وهكذا قدر لي أن أقف على أبواب الغير

ولكني الآن أكتب سيرة الرسول الخاتم

فالشكر لله أن جعل خاتمتي على الخير

ولكن وفاته حالت دون إكمال الكتاب، فلم ينشر الجزء الأول منه

إلا بعد وفاته بثلاثة أعوام.

عبر شبلي عن حبه اللامحدود للنبي ﷺ حين ألف هذا الكتاب
لذلك يقول: لا يمكن لمؤرخ غربي أن يكتب سيرة النبي ﷺ كما يجب
لأنها تحتاج إلى الموضوعية والحياد والاحتياط والحذر والعلم بأصول
الرواية والتعاطف مع النبي ﷺ وهذا ما لا يمكن توافره في غير
المسلمين" (۲).

يقرر شبلي هنا أمران أحدهما حبه الشديد للنبي ﷺ واشتراطه
ذلك لكل من يتعرض لسيرة النبي ﷺ، والآخر عدم الحياد وعدم
الموضوعية في المستشرقين الذين ينطلقون من الحقد على الإسلام
وعلى رسول الإسلام ﷺ.

۱ - "ياد كار شبلي" از داکتر شیخ محمد إکرام، ص ۴۲۱.

۲ - المرجع السابق ص ۴۲۲.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

استفاد شبلي النعماني مما كتب قديما وحديثا حول الموضوع، فعند الحديث عن العرب قبل الإسلام وعن الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية استرشد بأقوال الغربيين الذين مروا بالمنطقة ووصفوها في كتبهم أمثال نولد كي وفارستر إلى جانب أقوال العلماء المسلمين^(١).

لم يكن كتاب "سيرة النبي ﷺ" في حقيقة الأمر عملا فرديا فقد كان شبلي يؤمن بالعمل لجماعي، لذلك ألف مجلسا أسماه "مجلس تأليف السيرة" ضم عددا من العلماء، فبالإضافة إليه كان هناك سليمان الندوي - وقد سبقت الإشارة إليه - وعبد الماجد الدرا آبادي، وعبد السلام الندوي وآخرون^(٢).

لم يكن هذا العمل سهلا وقد اعترف المؤلف نفسه بذلك في مقدمة الكتاب حتى أنه وكما يقول في رسالة وجهها إلى أحد أصحابه كان أحيانا يمر عليه أسبوعان أو ثلاثة لا يكتب فيهما سوى صفتين أو ثلاثة!

كانت نيته تتجه إلى تأليف الكتاب من جزء واحد ولكن قلّمه فاض حتى كتب جزئين ولم ينته من أحداث السيرة فقد وصل حتى أحداث السنة التاسعة من الهجرة في نهاية الجزء الثاني حين وافقه المنية، ولم ينشر الجزء الأول من كتابه إلا بعد وفاته بثلاثة أعوام. والكتاب الموجود بين أيدينا يتكون من سبعة أجزاء متباينة في الحجم،

١ - "سيرة النبي ﷺ" از علامة شبلي نعماني ص ١٠٢، ١٢٢.

٢ - یاد کار شبلي از داکتر شیخ محمد اکرام، ص ٤٢٤.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

الجزآن الأول والثاني من تأليف شبلي النعماني وبقية الأجزاء من تأليف تلميذه سليمان الندوي. حين شرع شبلي النعماني في الكتابه في السيرة وضع لبحثه الخطة التالية^(١)

١- الجزء الأول عن أحوال العرب قبل الإسلام وتاريخ الكعبة وحياة الرسول ﷺ من ميلاده وحتى وفاته وكذلك عاداته وأخلاقه وأولاده وزوجاته.

٢- والجزء الثاني عن النبوة والرسالة.

٣- والجزء الثالث عن تاريخ القرآن الكريم ووجوه إعجازه وحقائق وأسراره.

٤- والجزء الرابع عن المعجزات.

٥- والجزء الخامس جعله للرد على شبهات المستشرقين الغربيين .

وبعد هذا التقسيم ذكر أنه ليس من الضروري أن ينشر الكتاب بهذا الترتيب، فالجزء الذي سيكتمل قبل غيره سينشره أولاً.

يقول تلميذه سليمان الندوي في كتابه "حيات شبلي"^(٢): كنت عند رأسه بعد ما لازم القراش، وكانت عيناى تذرفان. فتح الشيخ عينيه، والتفت إليّ وقال: ماذا بقى الآن؟ ماذا الآن؟ ماذا الآن؟ فسارع

١ - "سيرة النبي ﷺ از علامة شبلي نعماني، ص ٩٩.

٢ - التاء في "الحياة" تكتب مفتوحة في الأردية.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

من حوله بنضح قطرات من الماء على وجهه فابتلت شفتاه فأحس ببعض النشاط وأمسك بيدي، وقال: "السيرة" هي كل رأسمالي في هذه الحياة، أترك كل شئ واهتم بالسيرة، فقلت والكلمات تختنق في فمي: سأفعل، سأفعل.

وفي اليوم التالي دعاني وقال لي: السيرة (ثلاثاً)، أترك كل شئ واهتم بالسيرة. وبعدها بثلاثة أيام لفظ أنفاسه الأخيرة. كان ذلك في الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩١٤م. (١)

"سيرة النبي ﷺ"

جاء في دائرة المعارف الإسلامية (الأردية): بعد انفصال شبلي عن ندوة العلماء، قام بتأليف أهم كتب قاطبة وهو كتاب "سيرة النبي ﷺ". (٢)

الكتاب كبير في حجمه وموضوعه وأسلوبه وأهدافه، ومؤلفه من أولئك العلماء المعدودين الذين كان لهم دور بارز في الوقوف في وجه الصليبية الحاقدة التي تمثلت في هجمات المستشرقين على الإسلام ونبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ.

وكذلك كان له دور بارز في تحطيم ذلك الجمود الذي سيطر على العالم الإسلامي المتمثل في شيوخه الذين رفضوا الاجتهاد وآثروا

١ - ياد كار شبلي از داکتر شيخ محمد اكرام ص ٤٤٩.

٢ - اردو دائرة معارف اسلامية - زير اهتمام دانش كاه بنجاب - جلد ١١ - طبع اول - لاهور ١٩٧٥م - ص ٦٥١.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

التقليد ووقفوا في وجه كل فكرة جديدة وأبوا إخضاع الدين وقضاياه لطرق البحث العلمي الحديثة. فكان بين مطرقة المستشرقين الحاقدين على الإسلام وسندان أولئك الشيوخ الذين كانوا يكفرون من يستخدم عقله في فهم الدين.

يعتبر كتاب "سيرة النبي ﷺ" لشبلي النعماني الأول من نوعه حيث لم يؤلف في الأردية كتاب في السيرة مثله قبله. ألف الكتاب في وقت وجدت فيه الأفكار المسمومة التي تمتلأ بها المؤلفات الغربية مجالا رحبا تسرح وتمرح فيه وتحدث أثرها الخطير في الأمة الإسلامية حتى كان هذا الكتاب وأمثاله.

فرق شبلي النعماني في بداية كتابه "سيرة النبي ﷺ" بين السيرة وعلم الحديث مقررًا إنه لم يؤلف كتاب في السيرة التزم فيه صاحبه بالروايات الصحيحة فقط لأسباب كثيرة منها أن كثيرا من الأحاديث ذكرت في غير مظانها في كتب الحديث رغم محاولة أصحابها ترتيبها حسب الموضوعات. ثم أن السيرة تتطلب تسلسل الأحداث الأمر الذي قد لا يتوفر لها إذا اقتصرنا فيها على الأحاديث الصحيحة، لأن الأحاديث الصحيحة لا تسعفنا بكل أحداث السيرة ولا سيما التفاصيل الصغيرة^(١).

والمؤلف - حسب المنهج الذي اتبعه في كتابه - يمهّد للموضوع قبل الحديث عنه بتمهيد واف يوضح فيه جميع جوانب الموضوع،

١ - سيرة النبي ﷺ از علامة شبلي نعماني، جلد اول، ص ٨٠، ١٠.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

فمثلا في بداية الكتاب حين أراد أن يتحدث عن فن السيرة مهد له بحديث مسهب عن أصول الرواية والدراية وضرورة خضوع الدوايات التاريخية لهما وخاصة إذا كانت متعلقة بالنبي ﷺ أي بالسيرة النبوية. (١)

وعند الحديث عن مطاعن الغربيين في الإسلام ورسوله ﷺ فصل الكلام عن المستشرقين وأنواعهم، والأسباب التي دعتهم إلى التجني على النبي ﷺ. (٢)

ومن تمهيده للموضوعات حديثه عن تاريخ الأنصار وانحذارهم من اليمن بعد الدمار الذي أحدثه السيل العرم، وعن علاقتهم باليهود في المدينة. كل ذلك قبل الحديث عن هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. (٣)

ومما يميز هذا الكتاب أن مؤلفه يناقش أحداث السيرة النبوية بالأدلة والمنطق — وهذا دأبه — مثلما فعل حين أثبت أن الذبيح هو اسماعيل عليه السلام وليس اسحق عليه السلام بأدلة عقلية ونقلية من القرآن وكتب التاريخ والتوراة والإنجيل، وحين تحدث عن موضع الذبيح وحقيقته، فقد أفرد لهذه المناقشة صفحات كثيرة. (٤)

١ - المرجع السابق ص ٤٢ ، ٤٦ .

٢ - المرجع السابق ص ٩١ ، ٩٨ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

٤ - المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٤٢ .

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

ومن بحوثه القيمة في الكتاب بحثه في أسباب وقوف قريش في وجه الدعوة الجديدة، ذكر منها:

١- عدم تقبلهم لما جاء مخالفا لعاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

٢- حرصهم على سلطتهم ونفوذهم.

٣- نفورهم من النصارى بسبب ما فعله أبرهه الأشرم النصراني حين أراد هدم الكعبة فمالوا إلى الفرس في حربهم مع الروم، لذلك عندما انتصر الفرس على أعدائهم الرومان فرحت قريش. ولما جاء النبي ﷺ بالدين الجديد ربطه القرشيون بالنصرانية، فكلاهما دين سماوي.

٤- لأجل ما كان من التنافس بين بني هاشم وبني أمية وفي ذلك قال عمرو بن هشام (أبو جهل) حين سأله الأحنس بن شريق عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدق.

فهي العصبية إذن التي حالت دون أن يؤمن أبو جهل بالنبي ﷺ، ولو جاء بهذا الدين رجل من أهله لآمن به! حقا ما قاله النبي ﷺ عن هذه العصبية: دعوها فإنها منتنة.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

٢- حالت أخلاق ساداتهم السيئة دون قبولهم الدعوة الطاهرة فأبو لهب مثلاً كان قد استولى على غزال مصنوع من الذهب من خزنة الحرم، ورغم علم سادات قريش بهذا الأمر فإنهم لم يحرکوا ساكناً، ولم يلوموه على تصرفه المشين هذا.

٢- وعرف عن الأحنس بن شريق بأنه كان ناماً وكذاباً والرسول ﷺ كما جاء لهدم الأصنام جاء أيضاً للقضاء على هذه الأخلاق وتزكية النفوس" (١).

ومن المباحث اللغوية التي تعرض لها شبلي النعماني في كتابه: حديثه عن تخلف العرب قبل الإسلام عن ركب الحضارة والأم المتحضرة، فيقول في ذلك: رغم أن اللغة العربية قادرة على أن تستوعب كل شيء فإننا لا نجد عند العرب وخاصة المتغلغلون منهم في أعماق الجزيرة العربية ألفاظاً تدل على الآلات المتطورة والتي كانت تستخدمها الأمم المتحضرة آنذاك مثل الفرس والروم، بل نجدهم يستعيرون هذه الألفاظ منهما أما العرب المجاورون لهاتين الدولتين فكانوا أحسن حالاً من هذه الناحية بحكم الجوار. وقد ذكر شبلي بعض المسميات التي استعارها العرب من الأمم المتحضرة آنذاك منها:

كلمة الدرهم وهي في الاصل دراخما وأصلها يوناني ثم أصبحت درام في الانجليزية وكذلك كلمة "السراج"، ورغم أنه ليس من الآلات المتطورة فإنهم أخذوه من "جراغ" وهي كلمة فارسية، ثم اخترع

١ - المرجع السابق، ص ٢٠١، ٢٠٨.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

العرب كلمة "المصباح" ومعناها آلة الإصباح. وكلمة "الكوز" مأخوذة من "كوزة" الفارسية. وكذلك "الإبريق" معربة من "ريز" وهي أيضا فارسية وتعني ما يسكب منه الماء، وكلمة الطست وأصلها "تست" ، وكلمة السروال محرفة من "شلوار" وهما أيضا فارسيتان. (١)

ومما يدل على دقة شبلي النعماني في فهم اللغة العربية وأسرارها تفسيره لجملة "مات حتف أنفه" بأنه من يموت على فراشه. كان العرب يرون الموت في ميادين القتال شرفا، والعار كل العار أن يموت أحدهم على فراشه، وكانوا يظنون أن من يموت منهم على فراشه تخرج روحه من أنفه ، فيقولون عنه: مات حتف أنفه.

ومن مميزات هذا الكتاب أنه يبحث في اسباب الغزوات والسرايا، الأمر الذي أغفله كتاب السيرة فيأخذ شبلي النعماني على كتاب السيرة من المسلمين عدم بحثهم في أسباب الغزوات والسرايا متيحين بذلك المجال لأعداء الإسلام للطعن فيه وفي نبيه الكريم ﷺ الذي وصفوه بأنه يحب إراقة الدماء .

اتبع شبلي هذه الطريقة في جميع الغزوات والسرايا فعند حديثه عن غزوة بدر بين أن نار قريش لم تبرد بعد إخراجهم النبي ﷺ من مكة بل ازدادت اشتعالاً حتى شملت جميع القبائل التي كانت تحت نفوذها ومما زاد غضب قريش مقتل سيد من ساداتها وهو أبو عمر بن الحضرمي، ومنذ ذلك الحين كانت تتحين الفرصة للاتقصاص على النبي ﷺ وأصحابه، وفي بدر حانت هذه الفرصة. لم يكن إنقاذ العير

١ - المرجع السابق ص ١١٢ ، ١١٣ .

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

هو سبب خروجهم كما لم يكن ذلك هدف المسلمين. أكتفى بهذه الإشارات فاتحا شهية القارئ إلى قراءة هذا الكتاب بعد صدوره قريبا باللغة العربية بإذن الله تعالى.

وعند حديثه عن أسباب كثرة السرايا التي بعثها النبي ﷺ بعد غزوة أحد يقول: كانت القبائل العربية - عدا قبيلة أو قبيلتين - تعادي النبي ﷺ ودعوته لأسباب منها:

١- إن هذه القبائل كانت تعبد الأصنام وقد ابتعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا ﷺ ليخرج الناس من عبادة غيره إلى عبادته وحده، وتحطيم الأصنام.

٢- كانت هذه القبائل تقع تحت نفوذ قريش التي كانت تحرضها ضد المسلمين.

٣- ومن أهم الأسباب أن هذه القبائل كانت تعتمد على النهب والسلب في معاشها، وقد نهى الإسلام عن ذلك قولا وعملا، فإذا سيطر الإسلام على الجزيرة العربية فإنه سيغلق هذا الطريق أمامها.

وبعد انتصار المسلمين في غزوة بدر هابتهم القبائل، ولم تجر أعلى أن تظهر عداها لهم، ولكن هزيمة المسلمين في غزوة أحد غيرت موقفها فأخذت تجهر بالعداء وتتهيا للوثوب على المدينة، فكان لا بد من إرسال سرايا على نطاق واسع تناوش هذه القبائل، وتثبط من هممها، وما هذه السرايا في حقيقة الأمر إلا معارك صغيرة. (١)

١ - المرجع السابق ص ٣٦٣، ٣٦٤.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

إن عامة المؤرخين — حسب عاداتهم — لا يذكرون أسباب هذه السرايا في كتبهم إلا ما كان من بعض المؤرخين مثل ابن سعد في طبقاته حيث أورد سبب كل سرية من هذه السرايا تقريبا كأن يقول: بعث النبي ﷺ السرية الفلانية لردع القبيلة الفلانية لأنها كانت تستعد للإغارة على المدينة. (١)

اكتفى بهذين النموذجين خوفا من الإطالة وحتى لا أبتعد عن الموضوع محيلا القارئ إلى الترجمة العربية للكتاب والتي ستصدر قريبا إن شاء الله تعالى.

ومما يؤخذ على شبلي النعماني في الجزئين اللذين ألفهما من هذا الكتاب أنه أغفل ذكر المعجزات بشكل ملفت للنظر، ربما كان عذرة في ذلك أنه سيتحدث عنها في جزء خاص ولكن المنية وافته فلم يتمكن من ذلك، وربما لأنه كان في صدد الرد على شبهات المستشرقين في عصر يتحكم فيه العقل. وقد وعد شبلي في مقدمة الكتاب أنه سيتحدث عن بعض المعجزات مثل حادثة الإسراء والمعراج وحادثة تكثير الطعام وغيرها في السياق التاريخي للأحداث ولكنه لم يفعل. (٢)

وقبل أن أختم الحديث عن الكتاب أود أن أشير إلى أن ترجمته لم تكن سهلة فأسلوب مولانا شبلي النعماني راق جدا يحمل في طياته كثيرا من الكلمات والجمل والتراكيب الفارسية الراقية، وكما قيل إن الكتاب بحاجة إلى أن يترجم أولا إلى الأردية ومن ثم إلى اللغات الأخرى!

١ - المرجع السابق ص ٣٦٤.

٢ - المرجع السابق ص ١٠٠.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

كانت ثمة مطالبة^(١) قديمة بترجمة الكتاب إلى اللغات الأخرى مثل الإنجليزية والعربية، فترجم إلى الإنجليزية مبكرا وتأخرت ترجمته إلى العربية.. ولا يفوتني أن أشير إلى الأخطاء المطبعية الكثيرة رغم صدور طبعات عديدة لهذا الكتاب لعدم اهتمام دور النشر ولا سيما المؤسسة الوطنية للكتاب - وهي مؤسسة حكومية باكستانية - بمثل هذه الكتب إلا من الناحية الشكلية.

والكتاب بحاجة إلى تحقيق كما أشار إلى ذلك الدكتور ظفر إسحاق أنصاري نائب رئيس الجامعة الإسلامية العالمية للشؤون الأكاديمية ومدير عام مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة أكثر من مرة. في نهاية هذا المقال أود أن أكلله بمقارنة سريعة بين الكتاب الذي نحن بصددده وكتاب آخر اسمه "حياة محمد" للدكتور محمد حسين هيكل^(٢) في النقاط التالية:

١- عاش كل من الدكتور محمد حسين هيكل والشيخ شبلي النعماني في عصر النقي فيه الغرب بغفوانه بالشرق في خموله، فظهر تأثير الفكر الغربي على الشرق، فنشطت الحركة التبشيرية في

١ - يادكار شبلي داکتر شیخ محمد إکرام ص ٣٥.

٢ - ولد الدكتور محمد حسين هيكل في ٣٠ أغسطس ١٨٨٨م في قرية كفرغنام القريبة من قرية برفين، وهو من الطبقة المصرية الصميعة التي أخذت تسود الريف المصري بعدما ورثت ما كان للطبقة التركية القديمة من ثراء ونفوذ. انظر "هيكل وحياة محمد منهج في دراسة التاريخ الإسلامي" للدكتور حسين فوزي النجار مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ص ٢٥.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

هذه الفترة وتبجح بعض المستشرقين على الإسلام وعلى رسوله تبجحاً سافراً، ولم يستطع أن يقف في وجه هؤلاء إلا قلة من رجال الفكر من المسلمين كان على رأسهم شبلي وهيكل.

وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى أن شبلي كان أكثر اطلاعا على مكائد هؤلاء المستشرقين، وأن معلومات هيكل كانت محدودة في هذا الشأن حتى أنه لم يعلم بما تبجح به مرجليوث ضد الإسلام ونبي الإسلام.^(١)

٢- خرجا من مشكاة واحدة، فشبلي النعماني تأثر وخاصة في بداية حياته بجمال الدين الأفغاني، بينما تأثر هيكل بمحمد عبده تلميذ جمال الدين، وقد تميزت مدرسة جمال الدين ومحمد عبده بصفات خاصة ظهرت جلية في مؤلفات شبلي وهيكل.

٣- الرد على المتعصبين من المستشرقين الغربيين الذين تناولوا على الإسلام ولجوا في الطعن في النبي ﷺ رداً علمياً اعتماداً فيه على الأدلة النقلية والعقلية.

٤- إقبال الشباب المسلم المتعطش إلى المعرفة على كتابيهما: "سيرة النبي" و"حياة محمد"، فقد طبع هذان الكتابان مرات عديدة وبأعداد كثيرة فكانت تنفذ بسرعة فيعيد طبعها من

^١ - ياد كار شبلي از داکتر شیخ محمد اکرام ، ص ٤٣٦ .

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

جديد^(١) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل أن هذين الشيخين كانا على ثغرة من ثغور الإسلام سدا فجوة كبيرة حاول الحاقدون من المستشرقين الغربيين الدخول من خلالها، فهياً الله هذين الفارسين لينافحا عن الإسلام وعن نبيه الكريم محمد ﷺ.

٥- اتبعا الطرق العلمية الحديثة في البحث، وهي طريقة القرآن وطريقة النبي ﷺ في دعوته، فكانا محايدين منصفين في بحثيهما يقول هيكل في مقدمة كتابه: لست مع ذلك أحسبني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد، بل لعلي أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة. وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوي. فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم الموازنة والترتيب ثم الاستنباط القائم على المقدمات العلمية وها هي ذي مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته.

١- طبع من كتاب "حياة محمد" عشرة آلاف نسخة نفذ ثلثها بالاشتراك أثناء الطبع ونفذ سائرهما خلال ثلاثة أشهر من صدوره. أنظر "هيكل وحياة محمد منهج في دراسة التاريخ الإسلامي" للدكتور حسين فوزي النجار ص ٢٠.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

يقول الشيخ محمد مصطفى المراغي معلقا على هذا القول^(١): أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه، فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد ونم المقلدين وأنب من يتبع الظن وقال: "إن الظن لا يغني من الحق شيئا"، وعاب تقديس ما عليه الآباء وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها، ولم تكن معجزة (محمد ﷺ) القاهرة إلا في القرآن، وهي معجزة عقلية، وما أبدع قول البوصيري.

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا، فلم ترتب ولم نهم

١- كما وقفنا في وجه الغالين من المستشرقين وفقا كذلك أمام الجمود الذي خيم على ربوع العالم الإسلامي آنذاك، وبيننا أن هذا الجمود شجع غلاة المستشرقين على الطعن في الإسلام ونبي الإسلام، الذين وجدوا في دعاة الجمود من المسلمين ما يؤيد طعنهم على الإسلام والمسلمين، وأنا حينئذ لهؤلاء المادة الخام لينسجوا منها ما يحاربون به الإسلام والمسلمين مثلما فعل الواقدي والطبري وأمثالهما.^(٢)

^١- أنظر تقديم الشيخ محمد مصطفى المرغي لكتاب "حياة محمد" للدكتور محمد حسين هيكل - دار القلم - الطبعة السابعة، ص ١٠٧.

^٢- سيرة النبي ﷺ علامة شبلي نعماني جلد أول ص ٩٥، ٩٦. وانظر "حياة محمد" للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٥، ١٧.

العلامة شبلي النعماني ومنهجه في سيرة المصطفى

٢- يعدان من أوائل الذين تناولوا السيرة النبوية بأسلوب العصر المائل إلى السهولة واليسر والبساطة الأمر الذي دعا الناس بكافة طبقاتهم إلى أن يقبلوا على كتابيهما.

لعل هذه المقارنة السريعة تلقي بعض الضوء على أحوال المسلمين الفكرية والثقافية في تلك الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعلى حياة كل من العلامة شبلي النعماني والدكتور محمد حسين هيكل وأفكارهما وطريقتهما في تناول السيرة النبوية.